وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَاللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوب

خطبة الإمام الشهيد البوطي

تاريخ الخطبة: 2002/11/29

الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، سبحانك اللهم لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبيٍ أرسله، أرسله الله إلى العالم كله بشيراً ونذيراً، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد؛ صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين، وأوصيكم أيها المسلمون ونفسي المذنبة بتقوى الله تعالى.

أما بعد فيا عباد الله

كنت أتأمل قبل قليل في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ إِلاّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً﴾ [مريم: 19/93-95]. تأملت في هذا الذي يقوله الله عز وجل عن مصير الإنسان إلى الله وعودته إليه غداً؛ يعود مجرداً من أوهام كبريائه وشموخه وطغيانه، متعرِّياً من مظاهر غناه وأبهته وقوته، مكسوَّاً من فَرْقه إلى قَدَمه كِسوةَ الذُّلّ والمهانة والضعف والفقر للواحد الذي لا ثاني له؛ وهو الله سبحانه وتعالى. عجبت لحال الإنسان المؤمن بالله الموقن بأن هذا كلام الله سبحانه وتعالى؛ كيف يركن في هذه الدنيا إلى المظاهر الكاذبة من زخرفه التي يتباهى بها، من أبهته الزائفة التي يستر نفسه تحتها، من قوته الكاذبة التي يسكر بها، من غناه الباذخ الوهمي الذي ينتشي به؛ وهو يعلم أنه سيؤول إلى الله عز وجل بالمظهر الذي وصفه الله سبحانه وتعالى. لماذا ترتدي ثوباً غداً سيمزَّق عنك، ولسوف تتجرد عنه؟ لماذا لا تُعَوِّد نفسك على تَقَبُّل الهُوية التي سترحل بها إلى الله سبحانه

وتعالى؟ لماذا تكفر النعمة التي أسداها الله عز وجل إليك. وتُعَرِّضُ نفسك لمن وصفهم الله عز وجل بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ﴾ [إبراهيم: 28/14]؟ لماذا تُدخل نفسك في قائمة من قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُوساً﴾ [الإسراء: 83/17]؟

أنا لا أطرح هذا السؤال على إنسان تاه عن هُويته ولم يعلم حقيقة ذاته، وأنكر وجود الله سبحانه وتعالى ولم يُعْمِل عقله في التفكير في ذلك. ولكني أتحدث عن أناس زعموا أنهم مؤمنون مسلمون يقرؤون كتاب الله عز وجل أو يسمعونه، هؤلاء هم الذين أَعْجَبُ من حالهم. نِعَمُ الله عز وجل تترى ظاهرة وباطنة – كما قال الله عز وجل – ونحن عبيد، فما المطلوب من عبد يكرمه الله عز وجل بنعمه؟ المطلوب منه أن يجعل من هذه النعم برهاناً جديداً على عبوديته لله سبحانه وتعالى. المطلوب منه أن يجعل من كيانه من فَرْقِهِ إلى قدمه ألسنة شكر لله سبحانه وتعالى.

وأقل ما يجب على هذا الإنسان المستغرق في نعم الله عز وجل المتقلب في أمواج من عطائه ومِنَحِه، أقل ما ينبغي – وهو عبدٌ لله عز وجل – ألاَّ يجاهر مولاه وخالقه بكفران هذه النعمة. إذا ابْتُلي بما لا يُرضي الله سبحانه وتعالى سَتَرَ نفسه، وجعل من سِتره لنفسه مظهراً آخر من مظاهر عبوديته وذله لله سبحانه، والله عز وجل كريم رحيم لم يكلف عباده شططاً ، لم يكلفهم – وهم خطّاؤون كما شاء الله عز وجل – بأن يشدوا أنفسهم إلى مستوى العصمة. لم يكلفهم أن يعيشوا حياتهم كلها بعيدين عن الانحراف ذات اليمين أو ذات اليسار. ولكن المطلوب من العبد أن يكون عبداً في واقعه السلوكي، المطلوب منه أن يَذِل لمولاه وخالقه. المطلوب منه إذا ابتلي أن يستر نفسه. عندما أنظر إلى إنسان عرف هويته عبداً مملوكاً لله عز وجل ثم إنه يشمخ بأنفه، يتخذ من نِعم الله عز وجل سَكَراً، ونِعم الله كثيرة منها ما هو ظاهر ومنها ما هو باطن. وصدق الله القائل: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً﴾ [لقمان: 20/31].

من النعم الجليلة التي أكرمنا الله عز وجل بها – وهي نعمة موسمية تتكرر – هذا الشهر المبارك. شهر رمضان نعمة، وأي نعمة أيها الإخوة. قد تكون نعمة باطنة لمن لم يتأمل ولمن لم يتفكر. ساعةُ أَوْبَة، مناسبة

اصطلاح مع الله عز وجل، موسم نِعم تهمي من الله عز وجل إلى عباده؛ منها ما يشعرون به ومنها ما لا يشعرون به. ونحن عبيد مملوكون لله سبحانه ونعلم أننا عبيد، كيف نمارس عبوديتنا لله عز وجل؟ نمارسها كما قلت لكم بأن نتذلل لله سبحانه، نعلن أننا جُهد استطاعتنا سنسير على النهج، ونمشي على الصراط، لن نشرُد عن أوامره ولن نغوص في شيء من نواهيه. فإذا ابتُلينا استترنا وعُدنا في أوبة وتوبة مقبولة إن شاء الله إلى مولانا وخالقنا.

ولكن المصيبة المخيفة والتي تهدد بالعقاب الرباني: أن ننظر فنجد كثرة كاثرة وقد بَدَّلَتْ – كما قال الله عز وجل – نعمةَ الله كفراً. عندما أسير في شوارع دمشق والكل يعلم أن هذه البلدة تستظل بظل رائع عظيم من فضل الله عز وجل ونعمته المتَمَثِّلَيْن في هذا الشهر المبارك. وكم وكم أُوْدِعَ في هذا الشهر من أسرار، عَلِمَ ذلك من عَلِمَ وجهلها من جَهِلَ، عندما أسير في شوارع دمشق فأجد هؤلاء الذين يجاهرون بالإفطار متباهين، متباهين مستكبرين وكأنهم لم يفعلوا إلا ما ينبغي أن يفعلوا. وكأن شهر رمضان لم يخطر على بالهم قط في ساعة من الساعات، وكأنهم ليسوا من هذا الشهر في شيء. يُشْرِع دخينته متباهياً بها، أو يمسك بشطيرته يأكلها وهو يلتفت إلى الناس متباهياً. والله عز وجل يقول: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32/22]؟

المعصية معصيتان؛ الواحدة منهما خَطبُهُ سهل ولين؛ تلك التي يقترفها العبد بينه وبين ربه، ما أسرع أن يتوب الله على صاحبها، أما المعصية الأخرى الخطيرة التي تسير بصاحبها على شفير الكفر والهاوية فهي المجاهرة بالمعصية، التباهي بها، هذه معصية أخرى. بوسع المؤمن الذي رأى نفسه ضعيفاً عاجزاً ورأى نفسه كطفل لا يستطيع أن يملك أَرَبَه وأن يتمتع بإرادة بوسعه أن يغلق بابه على نفسه ثم يأكل ويفطر ويفعل ما يشاء. ولاشك أن هذا الإنسان عصى الله ولكنَّ أمل المغفرة قريب، إلا أنه لم يمزق شعائر الشهر، لم يمزق شعائر الله. أعلن من خلال المعصية التي ارتكبها سراً عن عبوديته وذله لله سبحانه وتعالى.

أما هذه الظاهرة التي أقول إن بلدتنا تنفرد بها عن سائر بلاد الله التي من حولنا، تنفرد بها عن سائر البلاد العربية المحيطة بنا. هذه المعصية معصية خطيرة جداً؛ أن يكون هنالك مسلمون معترفون بإسلامهم،

موقنون بذل عبوديتهم لله سبحانه وتعالى ثم يرفع الواحد منهم رأسه عالياً متباهياً بفطرة، هذه المعصية تستنزل غضب الله في وقت نحن بأَمَسِّ الحاجة إلى رحمته، هذه المعصية تشكل الجزء الواحد من الخطر الذي أتحدث عنه.

أما الجزء الثاني ولعله الأهم فهو ألا يوجد من يردع هذا الإنسان المستكبر على الله، هذا الإنسان الذي يَرْكَل نعمة الله عز وجل بقدمه، ليس هناك من يردع هذا الإنسان المستكبر، والمأمول من بلدة يعتز كل من فيها بالقيم التي تتلألأ، بالإسلام الذي غدا مضرب المثل ولله الحمد في بلدتنا هذه. كان من المفروض أن تكون أعين الرقباء متربصة برعونة هؤلاء الناس. كان المفروض أن تكون أعين الرقباء مُتَتَبِّعَة لهؤلاء الناس تُطَهِّر البلدة من أدناسهم، تطهرها من أرجاس هؤلاء المستكبرين على الله عز وجل، يُعَاقَبُون كما كان الأمر عليه سابقاً، وكما كنا نذكر وبنشوة يوم كان هذا الإنسان المجاهر بإفطاره تُطَهَّر الأرض ويُطَهَّر الشارع منه ويُزَجُّ به في ظلمات السجن إلى أن ينتهي هذا الشهر المبارك وإلى أن يُوَدِّعه المسلمون خير توديع وعلى النهج الذي أمر الله سبحانه وتعالى به.

انظروا إلى نِعم الله، انظروا إلى كرم الله، انظروا إلى فضل الله الهابط إلينا من السماء والمتفجر إلينا من الأرض والذي يفيض به الجو. بل الأجواء كلها ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها﴾ [إبراهيم: 34/14]. أما ينبغي للإنسان – وإن لم يكن معصوماً، وإن كان خَطَّاءً– أن يتجلبب بجلباب العبودية لله، أن يعلن عن عبوديته لله عز وجل؟ فيستر نفسه إن ابْتُلِيَ، ويحاول أن يطهر أو أن يشترك مع إخوانه في تطهير هذه البلدة من أرجاس الاستعلان بالمعصية.

قيل لي عن المساجد التي تفيض بالمصلين وبالقائمين بالرُّكع السجود وتساءلت: أيهما أكثر عدداً؛ هؤلاء الذين تفيض بهم المساجد أم هؤلاء الذين تفيض بهم ما يسمى بالخِيَم الرمضانية؟ الخيم الرمضانية التي قيل: إن الناس يجتمعون لينتظر كل واحد منهم دوره، تَغُصُّ هذه الخيم بالمستقبلين. وأنا لا أعترض على فاسق أقام خيمة ليسيء من خلالها إلى شعار من الشعائر الإسلامية وإلى حرمة هذا الشهر المبارك، فكم على جنبات الأرض من فُسَّاق. لكني أعجب وأتألم ممن تفيض بهم جنبات هذه الخيم. كان من

المفروض لأهل هذه البلدة التي شرَّفها الله بنعمة الإسلام الذي يتلألأ، كان من المفروض بحال هؤلاء المسلمين الذين يتقلبون في ألوان من نعم الله عز وجل أن يقاطعوا هذه الخيم. ولكن لحُسْن حظ هؤلاء الماجنين أنهم وجدوا خيمهم تَغُصّ، وأنهم وجدوا أنفسهم لا يستطيعون أن يستقبلوا الوافدين إلا بعد أن يُهَيِّؤوا لهم أدواراً تلو أدوار تلو أدوار، أجل. عندما قيل لي عن كثرة المصلين والناس الذين يفيض بهم المساجد وضعت في ذهني الكفة الأخرى، أيهما أكثر؟ وعِلْمُ ذلك عند أكثر الناس الذين يعلمون هذا الأمر أكثر مني أيها الإخوة.

وحصيلة القول: أنني لا أدعو نفسي ولا غيري إلى العصمة، ولكني أدعو كل مسلم في هذه البلدة على كل المستويات إلى أن نَحْرُس شعائر الله، ونرفع من شأنها، وألاَّ نمزقها، وأن نبذل كل ما نملك لكي نجعل مظهر بلدتنا الإسلامية كباطنها، وأن لا نستخف بالشعائر والمظاهر فيقول قائل: إننا مسلمون ولله الحمد وإن بلدتنا بلدة إسلامية، وما أيسر ألاَّ تكون الشعائر الإسلامية موجودة. لا ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32/22] والعكس صحيح أيضاً.

ولقد قلت بالأمس وأقولها اليوم: إنني لأُشَبِّه بلدتنا هذه، التي هي حقاً مضرب المثل بين البلاد العربية في الالتزام بالإسلام الواعي، في تَعَشُّق الثقافة الإسلامية، العلوم الإسلامية، في الحنين إلى الالتزام بأوامر الله سبحانه وتعالى. شَبَّهْتُها بعروس هي أجمل عروس خلقها الله سبحانه وتعالى في المظهر وقسائم الوجه ولكنها محرمة من زخرفها، محرومة من زينتها، محرومة من المظهر الذي تتألق به كل عروس. هذا هو حال بلدتنا. هي فعلاً مضرب المثل بين البلاد العربية الأخرى في الالتزام، وفي التمسك بالإسلام الواعي. ولكن أَبْحَثُ عن مظاهر هذا الدين، في الدوائر أبحث عن المصليات فلا أجد. أَبْحَثُ في الفنادق التي تستقبل الصائمين، في المطاعم الفاخرة التي تستقبل الصائمين أبحث عن مُصَلىً فلا أجد، أبحث عن مكان للصلاة في هذه الأماكن فلا أجد، وأجوب الشوارع وإذا برمضان غريب بل غائب. وإذا بالكثرة الكاثرة من سائقي السيارات والتكاسي، الكثرة الكاثرة الذين يتسكعون على جنبات الطرق كلهم يمزق شعار هذا الشهر

المبارك. وألتفتُ يميناً وشمالاً إلى الذين يُعَاقِبون فلا أجد. ألتفتُ يميناً وشمالاً إلى الغَيَارَى على هذا الشهر فلا أجد، وأعود لأحزن وأشعر بالأسى على هذه العروس الرائعة في جمالها، المحرومة من زُخْرُفها.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوقظنا، وأن يكرمنا بأن نتجلبب بذل العبودية لله قبل أن نرحل إليه ونجد أنفسنا كما قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ إِلاّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً﴾ [مريم: 19/93-95].

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.